﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود: 102]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من الإخبار عن الماضي إلى التّحذير من المستقبل

"لَمّا أَخْبَرَ الرَّسولَ ﷺ في كِتابِهِ بما فعَلَ بأُمَم مَنْ تَقَدَّمَ منَ الأَنْبياءِ لَمّا خالَفوا الرُّسُلَ ورَدّوا عَلَيْهِم منْ عَذابِ الاسْتِئْصالِ، وبَيَّنَ أَنَّهُم ظَلَموا أَنْفُسَهُم فحَلَّ بهِمُ العَذابُ في الدُّنْيا، قالَ بَعْدَهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ﴾ فبَيَّنَ أَنَّ عَذابَهُ ليْسَ بمُقْتَصِرٍ على مَنْ تَقَدَّمَ، بَلِ الحالُ في أَخْذِ كُلِّ الظّالِمينَ يَكونُ كَذلك"[1]، فالمناسبة بين الآيةِ والسّابقة أنَّ السّابقة بيانٌ لما كان، وهذه الآية تنبيهٌ لما سيكون ممَّن يقتفي أثرَ السّابقين، فهي سنَّة مستمرَّة لا تتبدَّل ولا تتغيَّر ولا تتحوَّل، فمن ظنّ خلافَ ذلك فقد خالف العقل والاعتقاد والحقَّ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخۡذُ﴾: الهَمْزَةُ والخاءُ والذّالُ أَصْلٌ واحِدٌ تَتَفَرَّعُ منْهُ فُروعٌ مُتَقارِبَةٌ في المَعْنَى[2]، والأَخْذُ: حوز الشيء وتحصيله، وذلك تارةً بالتَّناول وتارةً بالقهر ويقال: أخذته الحُمّى، ويعبّر عن الأسير بالأخيذِ والمأخوذ، والاتّخاذ افتعال منه، ويتعدَّى إلى مفعولين، ويجري مجرى الجعل فتخصيص لفظ المؤاخذة تنبيه على معنى المجازاة والمقابلة لما أخذوه من النِّعم فلم يقابلوه بالشكر، ويقال: فلان مأخوذ، وبه أَخْذَةٌ من الجن[3]، ومعنى الأخذ في الآية: إنزال العقوبة بالظّالمين.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/59.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(3) الرّاغب، المفردات: (أخذ).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

سنَّةُ الله تعالى في الـظّـالـمين لا تتبدَّل ولا تتحوَّل

تُبيِّن الآيةُ أنَّ ما كان للسّابقين هو سنَّةٌ إلهيَّة، أي: ومثل ذلك الأخذ بالعذاب، وكما أهلكنا أولئك القرون الظّالمة المكذِّبة لرسلنا، كذلك نفعل بأشباههم، فنأخذ القرى ونهلكها وهي في حالة الظُّلم الشَّديد، إنّ أخذه وجيعٌ شديد لا يرجى منه الخلاص، وهو إنذار وتحذير من سوء عاقبة الظُّلم ومعنى: إنَّ أخذه أليم شديد، أي: عقوبته لأهل الشِّرك موجعة غليظة.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالتها:

عاقبةُ الظّالمين واحدةٌ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ عاطفة لهذه الجملة الخبريّة على الجملة الخبريّة في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾، لتشريكهما في حكم إعرابيٍّ واحد واتّفاقهما في أداء المعنى المراد وهو بيان عاقبة الظّالمين ومآلهم وسوء مصيرهم.

غرضُ التَّشبيه في الآية:

ردْعُ الظّالمين الكافرين عن الاستمرارِ في غيِّهم

معنى التشبيه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، أي: ومثل ذلك الأخذ والإهلاك للظّالمين السّابقين يكون أخذ ربِّك وعقابه لكل ظالم يأتي من بعدهم، وينهج نهجهم، "والتَّشْبيهُ في الكَيْفيَّةِ والعاقِبَةِ"[1]، أي: كيفية أخذ الظّالمين، وعاقبةُ ذلك في الدُّنيا والآخرةِ، والغرض من ذلك ارتداعُ المخاطَبين عن الظُّلم والكفر، واتِّقاء عقابِ الله وعذابِه.

دلالة اسم الإشارة:

شـدَّة البطش سنَّةُ الله تعالى مع الأمم الظّالمة

جاء التَّعبيرُ باسم الإشارةِ للبعيدِ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ "للإشارَة إلى المَذْكور من اسْتِئْصالِ تِلْكَ القُرَى، وهو ما يَدُلُّ عَلَيْهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/160.

قَوْلُه: ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾، والتَّقْديرُ: وكَذلك الأَخْذُ الذي أَخَذْنا بهِ تِلْكَ القُرَى أَخْذُ رَبِّكَ إذا أَخَذَ القُرَى"[1].

نكتةُ استعمال لفظ الأخذ:

مباغتةُ الظّالمين لونُ عذابٍ

التَّعبير بالأخذ في قوله تعالى: ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾ يومئُ إلى العقاب المباغت السَّريع، ومن هنا يقال: أخذ فلانًا الموتُ إذا نزل به بسرعة وقوّة، فلهذا التَّعبيرِ إيحاءٌ بسرعةِ العقابِ، ومفاجأته للمعاقَبين، فبينما هم غارقون في ضلالهم ومتلبّسون في ظلمهم إذ بهذا العذاب يغشاهم ويستأصلهم إلى جانب ما لهم من العذاب يوم القيامة.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ الأخذ:

الاستعارةُ أبلغ لما فيها من الإحاطةِ والتَّمكُّن

استعير لفظُ الأخذ في قوله تعالى: ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾ للهلاك والعقاب، فصرَّح بالمشبَّه به وهو الأخذ، وحذف المشبّه على سبيل الاستعارة التصريحيّة الأصليّة، وهو أبلغ من الحقيقة، لما فيه من الإحاطة والتَّمكُّن والمباغتة.

معنى الإضافة:

عقابُ الرَّبِّ عنايةٌ بالعباد المظلومين

أُضيف لفظ الأخذ إلى لفظ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾، للإخبار عمّا جرت به سنَّةُ الله تعالى في إهلاك مَنْ تقدَّم من الأمم، ومعنى الإضافة هو حرف (من)، أي: أخذٌ من ربِّك كائنٌ.

وإضافة الرَّب إلى ضميره ﷺ تكريمٌ وتعظيمٌ وتذكير له "بوصف الإحسان ما له إليه من البرِّ، لئلا يخاف على قومه من مثل هذا الأخذ"[2].

نكتةُ اختيارِ لفظِ الرُّبوبيَّة:

الرُّبوبيَّة تقتضي عقاب الظّالم وتربية المحسن

اختير لفظ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾ دون استعمال الأسماء الدّالّةِ على القهر والجبروت وهي في الظّاهر أليق، للإشارةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/160.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/378.

"إلى أنَّه سبحانه يربّيك أحسن تربية في إظهارك على الدّين كلّه وانقياد العظماء لأمرك، وذلِّ الأعزّة لسطوتك، وخفض الرؤوس لعلوّ شأنك، فلا تتكلّف أنت شيئًا من قصد إجابتهم إلى إنزال آية أو ترك ما يغيظ من إنذار ونحو ذلك"[1]. والتعبير بالرَّب يعكس ما كانوا عليه من ظلم حتى أغضبوا الرحمن، وفيه تحذير من الغرور في سعة رحمة الله تعالى فالله تعالى قال: ﴿*نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ٥٠﴾ [الحجر: 49 - 50].

دلالة إذا الظَّرفيَّة:

(إذا) في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ "ظَرْفٌ لِما مَضَى، وهو إخْبارٌ عَمّا جَرَتْ بِهِ عادَةُ اللّه في إهْلاكِ مَنْ تَقَدَّمَ منَ الأُمَم"[2]، فالظَّرفُ يُعيِّن وقت الاعتبارِ وهو وقت تحقُّقِ الأخذِ بالعقابِ الجازم، والعذابِ الهالكِ.

الاعتبارُ بالأخذِ عند تحقُّقِه

توجيهُ المجازِ في لفظِ القرى:

المراد بالقرى في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أهلها، فهي على المجازِ بحذفِ المضاف وإقامةِ المضاف إليه، والتَّعبير بالقرى أبلغُ من ذكر الأهل، وذلك لدلالتِها على العموم والشُّمولِ، فيدخل فيها البنيان والأشجار وكل ما تعلَّق به أهلُها.

المـجـاز إمّـا أن يـكـونَ حـذفًـا أو مرسلًا

أو نجعلها على سبيل المجاز المرسل لعلاقة المحلّية، حيث أطلق المحلّ وأريد الحالُّ فيها.

فائدةُ الجملةِ الحاليَّة:

جملة ﴿وَهِيَ ظَٰلِمَةٞ﴾ حاليَّةٌ من ﴿ٱلۡقُرَىٰ﴾، والواو فيها واو الحال، "وفائدة هذه الحال، الإشعار بأنَّ عقابهم كان بسبب ظلمهم، وفي ذلك ما فيه من التَّحذير لكل ظالم لا يبادر بالإقلاع عن ظلمه قبل

الظُّلمُ علَّةُ كلِّ عقوبةٍ وعذاب

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/378.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/261.

فوات الأوان، والمراد بالظُّلم ما يشمل الكفر وغيره من الجرائم والمعاصي التي نهى الله عنها، كالكذب وشهادة الزّور، وأكل أموال النّاس بالباطل"[1].

بلاغة الفصل:

بـيـانُ الـجـمـلِ تـحـذيـر شـديـد الـلـهـجـة لـكـل مـقـيـم عـلـى الظُّلم

فُصِلَت جملةُ ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ عن السّابقةِ لكمال الاتِّصال لكونها بيانًا وتفسيرًا لمضمون الجملة السّابقة، فالجملة بيَّنت أنَّ أخذ الله تعالى موجعٌ وشديد ولا خلاصَ منه، وهو إنذارٌ من سوء عاقبة الظُّلم، وفيها إشارة إلى وجه الشَّبه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، إذ فيها معنى التَّعليل، أي: مثل ذلك الأخذ العظيم أخذ ربك عند أخذه القرى، لأنَّه إذا أخذها فأخذه أليم شديد.

توجيه المجاز:

مـجـازٌ عـقـليٌّ لعلاقةِ المفعوليَّة

في قوله تعالى: ﴿أَلِيمٌ﴾ مجازٌ عقليٌّ لعلاقة المفعوليَّة، والمعنى: مؤلم قاطع للآمال مالئ البدن والرُّوح بالنَّكال والهوان، وعبَّر بأليم دون مُؤلِم لأنَّ المبالغة حاضرةٌ في السّياق، فهو مؤلمٌ للمعذَّبين لأنَّه أليم.

نكتة الجمع بين صفتي الألم والشِّدة:

اجـتـمـاعُ الألـم والـشِّـدَّةِ إهلاكٌ بـلـيـغٌ وعـذابٌ لدِيغٌ

الجمع بين هاتين الصِّفتين ﴿أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ فيه من المبالغة في التَّهديد والتَّحذير ما فيه، ودلَّ على أنَّ هذا العذاب بلغ الغاية في الألم والشِّدة، ومن تفكّر في هذا ولم يعمل له حسابًا تعكَّرت حياته وفارقته لذّاته، قال الإمام الفخر الرازي: "فوصَفَ ذلك العَذابَ بالإيلام وبالشِّدَّةِ، ولا مُنَغِّصَةَ في الدُّنْيا إلّا الألَمَ، ولا تَشْديدَ في الدُّنْيا وفي الآخِرَةِ، وفي الوهْمِ والعَقْلِ إلّا تَشْديدَ الألَمِ"[2]، فبين الصِّفتين تعاضدٌ وتناصرٌ في إظهار معنى هذا العذاب، فليس كلُّ أليم شديدًا، ولا كلُّ شديدٍ أليمًا، فإذا اجتمعتا في شيءٍ واحدٍ أهلكتْه إهلاكًا بالغًا.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/272.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/59.

بلاغةُ التَّذييل:

التَّعريضُ بالمخاطَبين إلى يوم القيامةِ

المَقصودُ من التَّذْييلِ ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ التَّعْريضُ بتَهْديدِ مُشْرِكي العَرَبِ منْ أَهْلِ مَكَّةَ وغَيْرِها، وفيه من إنذار الظّالم ما لا يخفى كما ورد في الصحيحين عنه ﷺ: «إنَّ اللّه ليُمْلي لِلظّالم حَتَّى إذا أَخَذَهُ لم يُفْلِتْهُ» قالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأخذ والانتقام:

الأخذ فعلٌ عامٌّ أمّا الانتقام فهو ردٌّ على ظلمٍ سابقٍ متوعَّدٍ

الأَخْذُ: حوز الشيء وتحصيله، وذلك تارةً بالتَّناول وتارةً بالقهر، ويقال: أخذته الحمَّى، ويعبّر عن الأسير بالأخيذِ والمأخوذ، والاتِّخاذ افتعال منه، ويعدَّى إلى مفعولين، ويجري مجرى الجعل فتخصيص لفظ المؤاخذة تنبيه على معنى المجازاة والمقابلة لما أخذوه من النِّعم فلم يقابلوه بالشُّكر[2].

والأخذ مصدر أخذت بيدي، ويستعار فيقال: أخذه بلسانه إذا تكلَّم فيه بمكروه[3].

الانتقام من نقم: نقمت الشَّيء ونقمته إذا نكرته إمّا باللِّسان وإمّا بالعقوبة، والنِّقمة: العقوبة[4]، والانتقام سلب النِّعمة بالعذاب، والانتقام نقيض الإنعام، والنِّقمة لا تكون إلّا جزاء وعقوبة، وأصلها شدَّة الإنكار تقول: نقمت عليه الأمر إذا أنكرته عليه وقد تسمّى النِّقمة بلاء[5].

الأليم والشديد:

الأَلَمُ: الوجَعُ، والأليمُ: المُؤلِمُ الموجِعُ، والعَذاب الأليمُ: الذي يَبْلغ

(1) البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب التفسير، بابُ قولهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ [هود: 102].
(2) الرّاغب، المفردات: (أخذ).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 144.
(4) الرّاغب، المفردات: (نقم).
(5) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 254 بتصرف.

إيجاعُهُ غايَةَ البُلوغِ، وإذا قُلْتَ عَذاب أليمٌ فهو بمَعْنَى مُؤلِم، والتَّألُّم: التَّوجُّع، والإيلامُ: الإيجاعُ"[1].

والشَّدُّ: العقد القوي، يقال: شَدَدْتُ الشّيء: قوّيت عقده، والشِّدَّةُ تستعمل في العقد، وفي البدن، وفي قوى النّفس، وفي العذاب، والشَّديدُ والمُتَشَدِّدُ: البخيل فالشَّديدُ يجوز أن يكون بمعنى مفعول، كأنَّه شدّ، كما يقال: غلّ عن الأفضال ويجوز أن يكون بمعنى فاعل، فالمُتَشَدِّدُ كأنه شدّ صرّته وشَدَّ فلان واشْتَدَّ: إذا أسرع"[2].

الأليم العذابُ البالغُ راحةَ الأبدانِ فمنغِّصها، والشديد المستحكم من المعذَّب

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 254 بتصرف.
(2) الرّاغب، المفردات: (شدَّ).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 21 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك :978-9948-768-18-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 21 : المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي :978-9948-768-18-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725944 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»